استيلاء المغول على بغداد

لنصير الدين الطوسي

صفحة تاريخية لم تنشر

ذكر المؤرخون على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم حادثة سقوط بغداد ، على يد المغول وأفردوا لها المجلدات الضخام ، ولكن الامر الذى يستحق الاعتبار أكثر من كل شيء هو أن نقرأ تفاصيل هذه الحادثة بقلم انبعاثة (الخواجه نصير الدين الطوسى) الذى رافق الحملة التترية الى بغداد وحضر الواقعة بنفسه وكتب مارآه وماسمعه بدون تحزب كما سيتضح لك من هذه الوجيزة التى أخرجها حديثا من بين رسائل العلامة الطوسى الخطية « رسول النخشبي » أحد كتاب ايران ، رأينا أن نرسل بترجمتها للرسالة لاهميتها أولا ولمناسبة ما أورده الاديب فرحان شبيلات فى عددى الرسالة ٣٣ — ٣٤ — ثانيا

« لما عزم السلطان (هولاكو خان) على أن يلج بلاد الملاحدة (الباطنية) سير من تياه مندوباً الى الخليفة ليطلب منه النجدة حتى يتناصل بذلك شأفتهم ويمحو سطوتهم ، فبلغ الرسول الخليفة فحوى الرسالة بقوله يقول السلطان : « انا بعاداتنا البدوية وأسسنا القومية نستنجد بموالينا على اعدائنا ، وبالنظر الى الحب والولاء القائم بيني وبينك أرجو معونتنا بخيلك وامدادنا برجلك ، حتى نقدر شر هذه الفئة الباغية التى أريقت بكيدها الدماء وازهقت بغدرها أرواح الأبرياء » فاجتلى الخليفة حاشيته واتمر مع أصحابه ، فاجابه الجمع من الجنود والامراء ، بان « هلاكو » يريد بهذه الحيلة إخلاء بغداد من العدد والعدة لتتسع فى وجهه مفتحة الابواب ، خالية من الخيل والركاب ، فيستولى آنئذ على المدينة بلا توجس خوف وارتياب ، ونمسى على مافعلنا نادمين . فانصاع الخليفة لرأى الجلساء وتوانى فى امداد السلطان ورجع الرسول الى سيده بخفى حنين

ولما أن فرغ السلطان من فتح بلاد الملاحدة عاتب الخليفة عتابا مراً وانذره انذاراً أليما ، فارتأى الخليفة أن يستشير وزيره — العلقمى — فاشار عليه هذا أن يحمل ما فى دار الخلافة من فاخر الاثاث وزخرف الرياش على البغال المسرجة والخيل الملجمة ويقدمها هدية للسلطان ، وينجو بهذه الواسطة مما يوشك أن يحدث فى ملكه من التدمير والهوان ، فقبل الخليفة ماأشار الوزير اليه وأمر بتسجيل ما يلزم انتقاؤه من الأشياء ، وعين لايصالها نفراً من أركان دولته لعرض المعذرة عند تقديم الهدية ، فاجتمع أحد الامراء المدعو « الدوات دار الصغير » مع عدة من صحبه وقال لهم انهذه مكيدة أراد بها الوزير قتل أعواننا ونهب أموالنا ، فاذا جيء بالاموال الى ظاهر البلد تنقض عليها برمتنا ونستنقذها لتكون ذخراً ليوم شدتنا ، فمضى الخبر إلى الخليفة واضطر الى ابدال الكثير بالقليل ، والوافر بالنزر ، فاغتاظ السلطان وأرسل اليه أن يحضر بنفسه أو أن يبعث اليه أحد الذوات الثلاثة : الوزير أو الكاتب أو سليمان شاه ، فتوانى الخليفة فى انجاز ماأراده السلطان أيضا ، فاشتد من أجله غضب السلطان وعقد النية على فتح بغداد ، فارسل الخليفة الازبكى مرة وابن الجوزى بن محيي الدين مرة فارتدا خائبين . لأن السيل قد بلغ الزبى ، وحان الوقت الذى لا ينفع فيه الندم .

ففى شهر شوال سنة ٦٥٥ هـ نهض السلطان — هلاكو — من همدان مولياً وجهه شطر قاعدة الخلافة العباسية . على أن الامير « صو غنجاق » والسردار « تايجونوئين » كانا قد ذهبا مع مقدمة الجيش الايمن على الميمنة مما يلى اربيل عن طريق جبال « شهرزور » كما أن القائد « دقوق » وزميليه « كبد بوقائين » و « انكتانوئين » كانوا على الجناح الايسر من الميسرة التى زحفت إلى (تكريت) و (بيات) وكان قيلق القلب من الجند السلطانى تحت إمرته الشخصية يسير من كرمنشاه وحلوان إلى بغداد . هذا وقد سار « الدوات دار » من بغداد بجيش الخليفة وأتى إلى بستوبه فخيم بجوارها . أما السلطان فكان قد أوعز إلى أحد قواده المدعو « تايجورا » أن يعبر دجلة ويدخل بغداد من جانبها الغربى — وقد تخلى هو عن رحله وسرادقه عند ما وصل حلوان وخرج منها بسرية من جيشه ، وأول حادث حدث هو أن طلائع الجيش الملكى أسرت طليعة من جند الخلافة ، ولما مثلوا بين يدى السلطان أقسموا الايمان المغلظة على أن يخلصوا الخدمة من يومهم للملك ويؤدوا له ما يجب عليهم من الصدق والامانة ، وكان [illegible] أمير من بقايا الملوك الخوارزمشاهية فأرسل هذا كتابا من قبله الى العسكر العباسى مخاطبا به « قرانسقور » أحد أمراء جيش الخلافة بالعبارة التالية : —

« انى وإياكم من جنسية واحدة ، أديت الطاعة واتصلت بالخدمة فصرت من المكرمين ، فاذا أردتم أن تبرئوا أنفسكم وتشفقوا على

أرواحكم فاعتصموا بحبل الطاعة وتمسكوا بذيل العبودية لاني لكم من الناصحين . »

وبعدما قرأ « قرانقور » الكتاب أجاب الامير المذكور بما يلي : — « متى صارت لهلاكو تلك المكانة التي يتمكن بواسطتها بلوغ هذه الغايات ، ولعمري أن هذه الدولة العباسية ، قد شاهدت كثيرا من أمثاله واقرانه ، هذا وان مجيئه بهذه الصورة الى بلاد الخليفة وتدميرها بهذه الصفة لدليل على انه يريد في الارض علوا وفسادا ، وان أراد غفران ذنوبه وقبول اعتذاره فليرجع الى همدان حتى أتشفع له بواسطة « الدوات دار » لدى الخليفة ليعفو عما سلف منه »

وبعد ما وقف السلطان على فحوى الرسالة ضحك ضحكة المتهكم وقال « نعم إن الأمر بيد الله وانه فعال لما يشاء » وبعد ما عبر القائدان دجلة ظن البغداديون أن هذه الجيوش والعساكر ما قطعت النهر الا تحت قيادة هولاكوخان الخاصة ، ومتى الخبر الى « الدوات دار » فقفل راجعاً من بعقوبة الى بغداد ، وعبر دجلة فالتقى « بصوغنجاق » الذي كان في مقدمة الجيش المغولي ، ووقعت بينهما معركة انكسرت فيها عساكر « صوغنجاق »

والتجأ الاخير الى الفرار ، ولكن الذي حصل لعسكر « الدوات دار » عند اشتباكه بالحرب مع « تايجونوئين » القائد الثاني دعا لضياع النتيجة ، ضاقت عليه الاحوال فآب « الدوات دار » راجعا بجمعه المتفرق الى بغداد .

أما السلطان فامتطى جواده وعبر « ديالى » مع جمع من عسكره إلى أن بلغ ظاهر بغداد في منتصف شهر محرم سنة ستمائة وست وخمسين ، وارسل « بوقاتيمور » مع جيش ليحيط ببغداد من جانبها الغربي ، وأمر أن يقيم الجند حائطا يحتضن المدينة من كل الجهات ، ثم نصبت عليه المجانيق وهيئت المؤن والمعدات اللازمة للحرب والقتال

ولما أحس الخليفة بذلك اجتمع باصحابه ليتشاوروا في الخطب ، فقال بعضهم اذا أردنا أن نقدم لهم الهدايا الفاخرة ونفتدي المدينة بالدرهم والدينار فعسى أن يحملوا هذا دليلا على الخوف والهوان ، والاصلح إيفاد الوزير « صاحب الديوان » مع « ابن الدربوس » بقليل من التحف والرياش ، فاستحسن الجميع قوله ، فلما احضر صاحب الديوان وزميلاه الى السلطان قال : لماذا لم يحضر عندنا « سليمان شاه » و « الدوات دار » ؟ فاجيب بان السلطان كان قد كتب للخليفة أن يبعث واحداً من هؤلاء الثلاثة ، فارسل الخليفة الوزير الذي هو أكبرهم ، فقال السلطان نعم . ولكن أردت ذلك في همدان ، وهأنذا في بغداد ، هذا وبعد أخذ ورد ظهرت بوادر القتال ظهوراً تدريجيا ، وابتدأت العساكر المغولية الحرب في ٢٢ محرم وحمل السلطان بنفسه على بغداد من جانبها الشرقي تجاه برج العجم ، وحاربت عساكر « كبوق » بالسهم والنشاب ، وكان القائدان « بلغاي » و « سناي » يتقاتلان في الجانب الايمن للمدينة . وأما « بوقاتيمور » فانه انهال بجيشه على بغداد من الجانب الغربي في أرض كانت تعرف حينذاك بـ « روضة النقل » ، أما تايجونوئين » و « صوغنجاق » فقد احتوشا المدينة وزحفا عليها مما يلي المارستان العضدي ، ودام القتال الشديد لمدة ستة أيام بلياليها ، وأمر السلطان أن ترسل ست رسائل بواسطة النشاب لجماعة السادة والعلماء والاركان والمشايخ وغيرهم ليفهموهم بان الجيوش المغولية لا تحرش بهم ان القوا سلاحهم وكانوا في حياد . وما بزغت شمس يوم الثامن والعشرين من شهر المحرم الا وتمكن العسكر المغولي من الاستيلاء على برج العجم ، وقبل صلاة ظهر ذلك اليوم تم النصر للمغول باندحار البغداديين اندحاراً عظيما ووقوع المدينة في قبضة التتر ، وكان قد ارسل السلطان وحدات من جيشه للحراسة على دجلة من أعلاها الى ادناها وللقبض على الذين يريدون الفرار ، واتفق ان صادفوا ثلاث سفن تحمل اثاث « الدوات دار » وشيئا كثيرا من أمواله وسلاحه وغير واحد من رجاله وصحبه من جملتهم نقيب العلويين ، فاوقفوها عن السير برشاشات النفط النارية ، ولما تمكنوا منهم قتلوهم جميعا حتى النقيب العلوي وصادروا جميع ما فيها من المحمولات ، هذا وقد أمر السلطان أهل بغداد أن يشتركوا جميعهم بهدم السور التي تحيط بالبلد ، وبعد ما اعلن السلطان العفو العام استأذن الخليفة السلطان للخروج من بغداد لانه تحقق من نفسه وجيشه الضعف الكامل ، وانه باء بالفشل المبين . والخلاصة ان الخليفة قابل السلطان في « باب كلواذ » بجمع حاشد من السادة والائمة والمشايخ والاركان ، وهذه هي المقابلة التي كانت تعد آخر يوم من ايام الخلافة العباسية . .

ثم صدرت أوامر السلطان في ان يبادر الجند بنهب المدينة وغزو ما فيها من الاموال . وفي يوم الاحد الموافق لرابع شهر صفر سنة ٦٥٦ هـ دخل السلطان المدينة وولج القصر العباسي ثم دخل الغرفة التي كانت معدة لجلوس الخليفة عند ما يريد القراءة والكتابة

وكان الخليفة حاضرا هناك مع نفر غير قليل من العلماء والاشراف ، فتقابل السلطان معهم وتكلم بعد ذلك مع الخليفة وقال له ابن الهدايا ؟ فاحضرت له فقسمها السلطان بين رؤساء الجند وقادة الجيش ، ووضع السلطان طبقا ملؤه الذهب الابريز أمام الخليفة وقال له تقدم وكله لسد جوعك ، فقال الخليفة ليس هذا مما يأكل الانسان ! فقال السلطان إذن ما ضرك لو كنت قسمته على اعوانك وجيشك ليكون وسيلة لقوة أمرك وداعيا لنصرتك ؟ ولم لم تخلع هذه الحدايد التي غلقت بها هذه الابواب ليصنعوا منها سهاما تمنع عبور أعدائك من الجيحون « دجلة » ؟ فاجاب الخليفة كل ذلك كائن بتقدير الله ، فقال السلطان نعم وإن الذي سيجري عليك يكون بتقديره أيضا . ثم أمر السلطان أن تدخل النساء اللواتي باشرهن الخليفة أو ولده بقصر دار الخلافة ، وأذن بدخول الوصائف والخدم أيضا ، وأحصيت فكانت « ٧٠٠ » امرأة و « ١٣٠٠ » وصيف وخادمة . وبعد أسبوع أعلن الامن العام وجمعت الغنائم والاسلاب

وفي اليوم الرابع عشر من صفر خرج السلطان من المدينة وأمر باحضار الخليفة بظاهرها فأحضر مع ابنه الاوسط وخمس أو ست من خدمه الخصوصيين فوقعت الواقعة وصار ماصار وانتهت آخر أيام الخليفة العباسي في ذلك اليوم ، وفي اليوم التالي قتل نجل الخليفة الاكبر وشتت بعد ذلك شمل الحرم والنساء فتفرقوا ايدي سبأ . ثم أمر السلطان بعد ذلك بتعمير بغداد ودفن أجساد البشر والحيوانات التي كانت مطروحة في الطرقات بعدما نصب الوزير — ابن العلقمي — للوزارة وصاحب الديوان لديوانه ، وأعطى امارة الجيش لابن الدربوس ، وسلم ادارة الشرطة في بغداد لرجل يدعى — استونها — وبعد ذلك رحل من بغداد الى حيث يريد محفوفاً بهالة من النصر

وكان السلطان قبل رحلته من بغداد سير « بوقا تيمور » بحملة أخرى لاخضاع الحلة وواسط فخضعتا وتوجه « بوقا تيمور » بعد ذلك نحو مدينة « تستر الاهواز » بقصد الاستيلاء عليها ورافقه شرف الدين بن الجوزي الى هناك .

وأما الكوفة والبصرة فانهما أظهرتا الخضوع والطاعة بلا أدنى حرب أو مقاومة .

كربلاء — عباس علوان الصالح

أقدم مكتبة في الشرق العربي

مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده

(تأسست سنة ١٨٥٦)

بها اكبر مجموعة للكتب الدينية والعربية

ترسل فهارسها لمن يطلبها ، ولها نشرات خاصة بالمطبوعات المصرية .

العنوان

مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده بمصر

صندوق بوستة الغورية رقم ٧١